الفصل الثاني
الاستقامة والحزم

الاستقامة هي أكثر الفضائل احتراما في الدستور الأخلاقي الياباني وتعريفها كما عرفها كبار رجال الساموراي بأنها" قدرة الإنسان على اتخاذ القرار السليم بحزم ودون خوف" . وعرفها آخرون بأنها " الإحسان هي روح الإنسان والاستقامة هي طريقها " .وليس غريبا أن نرى هذه الأفكار التي ولدت في فترة من الهدنة والهدوء الذي عاشتها جماعة الفروسية من البوشى بعد النزاع والصراع فصرفتهم إلى السكينة والهدوء والغرق في فهم الفضيلة وتناولها وابتداع الأساليب لإدراكها والانتفاع بآثارها . وهذه الطبقة التي تكونت ونادت بهذه القيم كان يطلق عليها لفظة 士義 (جيشي) أما في العربية فتعنى(الفارس الملتزم) ،وقد كان لهذه الطبقة نفوذا

عاليا وكانت الأمة اليابانية تنظر إليها وترى فيها مثلا أعلى للقيم ومقياسا للغاية الفنية والعلمية. وقد تكونت هذه الطبقة في البداية من سبعة وأربعين رجلا يشكلون رئاسة ال(جيشي) ففرضوا نفوذهم وآرائهم في تحضير الجماعات وإعداد ثقافتهم وكان لهم أكبر الأثر على المستوى الأخلاقي في اليابان، والغريب في الأمر والذي يلفت الانتباه هو أن التطور الملحوظ للمعنى الحقيقي والتحول الذي وصل إليه التعبير وصل ليصبح واجب عقائدي يفرض على كل من يشمله لقب الساموراي للامتثال لإحكامه والعمل بقوانينه.

وقد يكون من الممكن تقصى أثر بعض حركات الفترة التي سبقت عهد كونفوشيوس والتي آمنت بأنه من الصعب جدا على الفرد أن يحقق استقلالا في مجتمع إقطاعي منظم تنظيما محكما، ولكن بعض فقرات الأدب القديم قد تكون فيها إشارة إلى دس وتحوير. ففي النص الأصلي لكتاب قديم بعنوان "كتاب التغييرات" نجد ذكر أن "الشخص لا يخدم ملكا ولا سيدا إقطاعيا ولكنه يقدر شئونه الخاصة بروح عاليه.

ويقول منشيوس عن فكر(يانج تشو) أنه قد يكون على يقين أن العالم بأسره سوف يستفيد لو انتزعت من رأسه فقط شعرة واحدة إلا أنه يرفض أن تنتزع منه تلك الشعرة دون إرادته .وهنا يشير إلى الحفاظ على مدى استقامة شخصية الفرد والتزامه التزاما شديدا

بالحقيقة الواقعة والتي لا تسمح لنفسية شخص بأن تهوي به في شباك الأشياء .وقد تدفعنا الغريزة للتطلع والبحث أكثر عن الغاية والأسباب التي انطلقت من مزيجها هذه اللفظة، والواقع أن هذا التعبير وجد تأييدا لواجب الأبناء بالتزامهم نحو آبائهم. ويذكر (ليجي) في كتابه (الملك شى) " لا يمكن الاعتماد على أي إنسان مثل اعتمادنا على آباءنا ولا يمكن الاعتماد على أحد مثل الاعتماد على الأم وقال أن طاعة الآباء ليست عملا أخلاقيا فحسب وإنما فرضا شرعيا وأن الأخ الأصغر الذي لا يضع نصب عينيه الهدف السماوي الواضح ولا يحترم أخاه الأكبر أو الأخ الأكبر الذي ينسى اهتمامه الرقيق الذي يجب أن يحيط به أخاه الأصغر ويكون عدوا له، أو الأب الذي لا يستطيع أن يرعى أبنه بل يكرهه، والابن الذي لا يعامل أباه باحترام كل هؤلاء مجرمون أسوأ من القتلة ويجب أن يعاقبوا بلا شفقه. [٢٣]

ويوجد عدد من الوثائق التي حفظت من العهود الأولى والتي يعزو تأليفها نسبة كبيرة من المؤرخين إلى دوق (تشو) في الصين ويعتقد البعض أنها نسبت إليه خطأ وإنما نسبت إليه للمكانة التي يتمتع بها عندهم والذي يقول فيها: " تمسك بفضيلتك وكن جادا ولا تفعل ما قد يجلب الكراهية ولا تتبع مشورات زائفة وأساليب غير مألوفة، كن عادلا ومخلصا في أحكامك، كن بعيد النظر في كل تخطيطك

[٢٣] ديفنداك " هسين تزو وتقويم الأسماء" ص ٢٥٢-٢٥٣

حتى تهدئ ثائرة الناس " .وذكر في مكان آخر "أن الإنسان يجب أن يتعامل مع الناس كما لو كان يحمى أطفالا.

وإذا كان عقل المرء في سلام وسعادة فإن المشاهد دون العادية ستستر ناظريه ، وستطرب أذنيه الأصوات دون العادية وسيكفيه لطعامه الأرز الخشن والخضروات والحساء وسيبعث جسده الراحة للبس القماش الخشن وينتعل نعال مصنوعة من الحبال والليف وسيكفيه من الناحية الشكلية قبعة من القش وحصير على الأرض وكرسي بلا ظهر.

مثل ذلك الشخص الذي تنفسه كل الأشياء الفاخرة في العالم سيكون سعيد برغم أنه ليس لديه نفوذ أو منصب فإن أسمه سيصبح معروفا لو عين حاكما أو إمبراطورا وهو ما يقال عنه بحق إعطاء الشخص ما يستحق من الاعتبار وجعل الأمور المادية في خدمة الشخص.[٢٤]

ونذكر وثيقة مماثلة " عندما ينصب الملوك ولاة ليحكموا الناس يقولون لهم : لا تكونوا قساة أو ظالمين ولكن توسعوا في حمايتكم لكل الناس حتى تشملوا بها الأرامل"، وعبارات من هذا اللون كثيرة جدا لا نجدها في الأدب المتوارث فحسب لأن البعض قد يتشكك في أنها أضيفت مؤخرا . بل نجدها في النقوش الموجودة على الأواني

[٢٤] الفكر الصين من كونفوشيوس إلى ماو ص ٣٠

البرونزية الباقية منذ ذلك العهد وحتى الآن، وهذا يذكرنا بالتصريحات المشابهة لها المنطوية على الورع التي ينادى بها الحكام الأوروبيون الذين كانوا يعلنون أحيانا إنهم ليسوا حماة الكنيسة أو المدافعين عنها فحسب بل أيضا حماة الأرامل واليتامى والغرباء والمدافعين عنهم، وواضح تماما أن مثل هذه التصريحات تعلن لأسباب مختلفة وربما تكون أو لا تكون دليلا على الشعور بالخير والإخلاص من جانب أولئك الذين صرحوا بها، ولكن هذا لا يغير حقيقة واقعة وهي أن مجرد الإدلاء بمثل وجهات النظر هذه يكون له آثار مهمة في التاريخ وحقق أحد هذه المفاهيم التي تطورت عبر التاريخ القديم لتكون في النهاية العدل والاستقامة دورا مهما بصورة خاصة[٢٥]"

ولا أرى هنا أجمل من رأي " منشيوس " الفيلسوف الصيني وهو يقول "أن الاستقامة هي الطريق الذي لا تستطيع إغفال السير عليه حتى لا تضيع الروح ولا نعرف كيف نبحث عنها"، فهو يرى الاستقامة طريق ضيق يتحتم على الإنسان السير فيه وهو يهدف لاستعادة الجنة الضائعة في الأرض، وورد في كتاب منشيوس ما يلي" أنه حينما تقابل مع الملك (هوي Hui) فقال له الملك أيها السيد المبجل مادمت قد اعتبرت أنه من الأمور الجديرة أن تسافر سفرا بعيدا حتى تأتي إلى هنا فإني أعتقد أنك لابد من أن تكون قد

[٢٥] منشيوس ٧ / ٢(١/٣)

جئت ومعك ما يعود بالفائدة على مملكتي أليس الأمر كذلك ! ! ! فأجاب منشيوس : سألت يا صاحب الجلالة (ماذا سيعود على مملكتي بالفائدة) ؟ إذن سيسأل كبار موظفيك وما الذي سيعود على أسرهم بالفائدة؟ وسيتساءل صغار الموظفين والناس ماذا سيعود عليهم بالفائدة أيضا ؟ . عندها ستتعرض الولاية للخطر . وتابع حديثه مشيرا إلى أن مثل هذه الحالة ستجعل الملك في خطر من أن يقتله مرءوس يطمع في منصب أو جاه ويسترسل قائلا " ولكن يا صاحب الجلالة لم يكن هناك قط إنسان يحب الخير ويهمل والديه ولا رجل صالح ينظر إلى حاكمه نظرة استخفاف فعلى جلالتكم أن تتحدثوا فقط عن حب الخير والصلاح والطريق القويم بالعدل والاستقامة ولا تتحدث عن الفائدة. [٢٦]

أما في لقاء آخر بين منشيوس وملك (ليانج) أعترف الملك أنه عاجز عن متابعة قيم كونفوشيوس السامية لأنه يخجل من أن يقول أن له ميولا مختلفة غير جديرة بالتقدير مثل الميل إلى الجرأة والموسيقى والثروة والجنس فأكد منشيوس:" أن هذه ميول طبيعية سليمة ولن يأتي منها شر بل تأتي بخير إذا كان الملك في إتباعه لميله الطبيعي نحو العطف البشري فلابد أن يسمح لشعبه كما يسمح لنفسه أن يستفيد من هذه الميول ومن ثم فإن غرس الجرأة يجب أن يكون للدفاع عن

[٢٦] منشيوس ٢ / ١(١/٢-٥)

الدولة وعن شعبه ويجب أن يمكن الشعب من الاستمتاع بالموسيقى والرخاء الاقتصادي كما يمكنه لنفسه وفي الوقت الذي يستمتع فيه بالجنس يسمح بأن يكون في ميسور كل فرد من الشعب أن يتزوج ويستمتع بالجنس أيضا .[٢٧]

أما طاعة الوالدين فكانت لها أهميتها قبل ظهور كونفوشيوس وقد أوصى بممارستها ووافق على طول مدة الحداد حزنا على الوالدين وقد بالغ بعض الكونفوشيوسيين في طاعة الوالدين والحداد عليهما بصورة تفوق كل وصف كما أنهم دافعوا عن الإسراف في إقامة الجنازات. وجدير بالذكر أنه يمكن أن يطلق على كونفوشيوس معلم رغم أنفه . فلقد كان معلما صالحا وكان يحب أن يعلم ولكن طموحه كان يرمي إلى تغيير العالم .وبرغم أنه لم تتح له هذه الفرصة قط، وربما يكون من الصعب علينا محاولة فهم كونفوشيوس لضخامة الأساطير والأحاديث المنقولة عنه والتي تجمعت حول أسمه طوال القرون، فقد ولد كنفوشيوس سنة ٥٥١ قبل الميلاد في ولاية (لو) الصغيرة وكان موقعها هو موقع محافظة (شانتونج Shantung) الحالية بالصين ولم تتبين لنا معلومات عن أجداده ولكن محتمل أن يكون بين أجداده أرستقراطيون . ومهما يكن فإنه عندما كان شابا كان بشهادته هو نفسه " لا مكانة له في ظروف متواضعة " فكان

[٢٧] المقتطفات الأدبية ١/١/٦

عليه أن يعول نفسه ويباشر أعمالا هينة الشأن وكان في استطاعته أن يدرس ولكن يبدو أنه كان يعلم نفسه بنفسه إلى حد كبير، ولقد كان سيء الظن بغالبية الطبقة الأرستقراطية وكان يتحدث عن النبلاء المتطفلين في زمنه. لذلك نجد أنه كان قريب من عامة الشعب ولم يكن مسالما. فقد كان يؤمن في أسف بأن هناك أوقات يجب أن يلجأ فيها ذوى الأخلاق إلى القوة كي يحموا أنفسهم في هذا العالم، وأغلب الظن أن نشأة كونفوشيوس قد أثرت في تعاليمه. ولذلك تناول الاستقامة والعدل فقال عنهما " إذا ما أحسست بقلبي أنني مخطئ وجب على أن أقف خائفا حتى لو كان خصمي أقل الناس قوة، ولكني لو أحسست بقلبي أنني على صواب فسأسير قدما حتى لو كنت سأواجه الآلاف أو عشرات الآلاف من الفرسان"، وعلى نفس المستوى اتصالا بالناحية العملية كان يؤمن بأن أي جيش لا يمكن أن يحارب حربا فعالة ما لم يعرف جنوده العاديون لما يحاربون ويكونوا مقتنعين بعدالة قضيتهم التي يحاربون من أجلها، ولقد كان في زمنه كلمات تدل على الشخص النبيل يكاد يكون لها نفس المعاني المتداولة مثل كلمة الجنتلمان Gentleman أو الشريف في العربية أو ما يشبهها في اللغات العالمية والتي تعني رجلا طيب المنبت ينتمي أجداده إلى طبقة فوق طبقة عامة الشعب، ومثل هذا الشخص نبيل منذ ولادته . فإذا لم يولد فرد على هذه الصورة لا يمكن أن يكون

نبيلا، فغير كونفوشيوس استعمال هذه الكلمة تمام التغيير فأكد أن أي رجل مهما كان منبته يمكن أن يكون نبيلا لو كان سلوكه نبيلا بعيدا عن الأنانية وكان(عادلا ومستقيما) ولا يمكن اعتباره نبيلا على أساس المنبت فقط.

هذا المزيج بين الاستقامة والعدل والحزم ورحلة (الجيشي) في تحولها من لفظة إلى قواعد عقائدية وليست كعامل عاطفي كما يرى بعض الباحثين الذين قارنوها بتوافقها مع تعاليم السيد المسيح في هذه النقطة إلا أنهم اكتشفوا أن المؤثر العرفي وحده عديم النفوذ بالمقارنة بالمؤثر العاطفي والديني الذي يدفع الفرد إلى التوجه نحو السمو والفضيلة . وان الفضيلة كواجب عرفي تلازم كل جماعة تكون العائلة فيها وحدة اجتماعية وتقتضي العمل على إحياء العادات العرفية في كل مسألة أو مشكلة. ولهذه الأسباب نرى أن لفظة (جيشي) انحرفت عن مدلولها الحقيقي وتحولت لتكون غاية قومية وسمة عقائدية. ولهذا كان حرص (البوشيدو) في دعوتهم لهذه الفضيلة بالشجاعة والجرأة بحيث لا تؤثر فيها مساوئ وطغيان العادات الأخرى التي سادت في مجتمعات كثيرة فحرصوا على تطهيرها من أي تأثير سيء على المستوى الأخلاقي والتربية العامة في اليابان.